Issue 6596 Thursday 27/2/2020
الزمان – السنة الثانية والعشرون العدد 6596 الخميس 3 من رجب 1441 هـ 27 من شباط (فبراير) 2020م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vol/22. UK

التربية على الدولة المدنية

عبد الحسين شعبان
بيروت

لم يكن المسرحي والكاتب الألماني برتولت بريخت واهماً أو حتى حالماً حين قال: "أيها الجائع تناول كتاباً، فالكتاب سلاح"، وهل يشبع الكتاب البطون الخاوية؟ لكن بريخت برؤية استراتيجية للمستقبل يدرك الترابط الوثيق بين الثقافة والتنمية والمواطنة، بل إنه يجعل من هذه الثلاثية محوراً مركزياً وعقلانياً للتقدّم، فلا تقدّم حقيقي دون التعليم، وفي التعليم تكمن فلسفة الدولة التربوية للنهوض بالمجتمع، وحسب أفلاطون وأرسطو وابن خلدون، فالإنسان مدني بطبعه وبالتالي ما يحكم علاقاته وسلوكه وتربيته هو مدني أيضاً.

وبدعوة من مؤسسة هانز سايدل الألمانية والمعهد العربي للديمقراطية، إلتأم مؤخراً في تونس مؤتمر فكري شارك فيه خبراء ومفكرون وتربويون عرب وأجانب لمناقشة تجارب تاريخية في البلدان العربية والأوروبية في ما يتعلق بمدنية الدولة ارتباطاً باليوم العالمي للتعليم (24 يناير /كانون الثاني) الذي قررته الجمعية العامة للأمم المتحدة، احتفاء بدوره في صنع السلام والتعايش والتنمية، إضافة إلى كونه حق من حقوق الإنسان وصالح عام ومسؤولية عامة .

وتضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في المادة 26منه الدعوة إلى التعليم الابتدائي المجاني والإلزامي. وكانت اتفاقية حقوق الطفل لعام 1989 قد نصّت على ضرورة توفير التعليم العام للجميع، كما ذهب إعلان مبادئ التسامح الصادر عن المؤتمر العام لليونسكو (1995) إلى تأكيد مناهضة التمييز في مجال التربية (الديباجة) وأكّد في المادة 4على أن: التعليم هو أنجع الوسائل لمنع اللّاتسامح، وهو ضرورة ملحّة، ويحتاج الأمر إلى أساليب منهجية وعقلانية لتعليم التسامح (التربية عليه) من خلال سياسات وبرامج، وهدفه مقاومة تأثير العوامل المؤدية إلى الخوف من الآخرين واستبعادهم، وتربية النشء على تنمية قدراتهم (أي نبذ التعصّب والتطرّف)، وشدّد على أهمية إعداد معلمين ومناهج دراسية وكتب مدرسية ومواد تعليمية أخرى لاحترام كرامة البشر والتربية على ثقافة التسامح واحترام حقوق الإنسان واللّاعنف.

وقد أقرّ المجتمع الدولي خطة التنمية المستدامة) 2030أيلول /سبتمبر/2015) مؤكداً "أن التعليم ضروري لنجاح جميع أهداف الخطة الـ 17 و169 مقصداً ، حيث نص الهدف الرابع على وجه الخصوص " ضمان توفير تعليم جيّد وشامل وتعزيز فرص التعلّم مدى الحياة للجميع" بحلول العام 2030.

محاربة التعصب

وتقتضي التربية على الثقافة المدنية، محاربة التعصّب ووليده التطرّف، وإذا ما انتقل هذا الأخير إلى التنفيذ وأصبح سلوكاً سيتحول إلى عنف، وحين يضرب هذا العنف عشوائياً يصير إرهاباً، ولعلّ غياب التعليم وتفشي الأمية يجعل البيئة مهيأة لتفقيس بيض العنف والإرهاب، وستكون الأرقام صادمة إذا ما عرفنا أن 258 مليون طفل وشاب لا يزالون اليوم غير ملتحقين بالمدارس، وهناك 617 مليون طفل ومراهق يعانون من الأمية (الأبجدية)، فما بالك بالأمية المعرفية والتكنولوجية، بضمنهم ما يزيد عن 70 مليون أمي عربي (أبجدي)، وهؤلاء الأكثر عرضة للتأثيرات الماضوية، تارة باسم الدين وتارة أخرى باسم التقاليد، ناهيك عن كوابح عديدة اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية ودينية ومذهبية وإثنية وعنصرية وغير ذلك.

وبالعودة إلى حكمة بريخيت فقد أثبتت التجربة أن التعليم والتربية السليمة هما طريق التنمية للخلاص من الفقر وتقليص الفوارق الاجتماعية وتطويق عوامل وأسباب التمييز والتعصّب والحروب والنزاعات والعنف والهجرة، وأساساً للعيش المشترك والاعتراف بالآخر وبحقوقه وبالسلام وقيمه. وتزداد الحاجة إلى التربية والتعليم على جميع المستويات، وخصوصاً في البلدان النامية ومنها بلداننا العربية، لأهمية تأمين الحق وتعميم المعرفة وجعل الثقافة في متناول الجميع، ومثلما هي حق إنساني فهي حق قانوني، وقد ورد ذلك في العهدين الدوليين، الأول - الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والثاني - الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، الصادران عام 1966واللذان دخلا حيّز التنفيذ العام 1976 علماً بأن 82 بالمئة من دساتير العالم تحفظ الحق في التعليم ، وأن 55 بالمئة منها يستطيع المواطن اللجوء إلى القضاء في حالة انتهاك هذا الحق.

وقد جرت في السنوات الثلاثين الأخيرة عمليات خصخصة للتعليم لقيت معارضة من جانب أوساط غير قليلة من الطبقات الكادحة ومحدودي الدخل، خصوصاً وأنها جعلت العديد من أبنائها خارج العملية التعليمية بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة وأجور الدراسة. وعلى الرغم من أن بعض البلدان العربية حقق بعض النجاحات إلّا أنه يحتاج إلى المزيد من التخصيصات المالية، ناهيك عن الارتقاء بالعملية التربوية لتنسجم مع روح العصر بحيث يكون التعليم شاملاً ومدنياً ووفق منهج موحد وعصري.

عملية تربوية

ولكي تكون العملية التربوية مدنية لا بدّ من : الوعي بأهميتها وإقرار ذلك قانوناً للوصول إلى أهدافها ، واتخاذ طائفة من التدابير والإجراءات لضمان تأمين "الحق للجميع (للإناث ولسكان الريف والبادية وللفئات الضعيفة ولذوي الاحتياجات الخاصة) فالتربية هي المدماك الأساسي لكل تقدم وتنمية ومواطنة، وتلك من أسس الدولة المدنية ، خصوصاً في ظل بيئة مناسبة بتأكيد قيم السلام والتسامح والمساواة وإقرار التعددية والتنوع والاعتراف بالآخر.

□ باحث ومفكر عربي

كيف هُزِمتُ أمام ثلاثية الجابري ؟

خالد شوكات
تونس

هناك كتابان اثنان غيّرا مجرى حياتي، الثاني هو كتاب المهاتما غاندي (تجاربي مع الحقيقة) الذي حررني من كل نزعة عنفية وقوّى فيّ النزعة الانسانية والروحانية، أما الأوّل فهو كتاب الدكتور محمد عابد الجابري (العقل السياسي العربي) الذي يشكل الجزء الثالث من مشروعه الفكري المميّز (نقد العقل العربي)، والذي طرح فيه نظريته غير المسبوقة في تمحيص التراث العربي الاسلامي في روافده الثلاثة البيان والبرهان والعرفان، من خلال ثلاثة محدّدات رئيسية مفتاحية هي (القبيلة) و(الغنيمة) والعقيدة / الأيديولوجيا، لم أجد أبلغ ولا أصوب ولا أسلم منها في قراءة الواقع السياسي العربي، في أطواره المبكرة والمتوسطة والراهنة، على الرغم من مساعيّ الدؤوبة طيلة ربع قرن في قراءة كل ما طالته عيناي من كتب وبحوث ودراسات تهم الموضوع نفسه أو اشتغلت على نقد اطروحات الجابري ودراستها.

وكان فضل كتاب الجابري عليّ، وخصوصا محدداته المفتاحية الثلاثة المذكورة، في أنه حرّرني من سطوة السردية الاسلامية (الاسلام السياسي)، وجعلني انتبه لأوّل مرّة إلى ان هناك قراءات اخرى – اكثر اقناعاً– للتراث الاسلامي، وخصوصا للاسلام المبكر، من تلك البكائية/اللطمية التي لطالما وجّهت عقولنا ونحن طلبة في الثانوية او الجامعة، وساهمت في تعبئتنا في اتجاهات تقصر الحقيقة على نفسها وتصوّر الماضي باعتباره جملة من المؤامرات المستمرة على دين الله ودولة الاسلام، التي يجب ان يعمل المسلمون اليوم على مقاومتها سعيا لاستعادة أمجاد الأمة وهزيمة أعدائها، وذلك دون القيام باي عملية نقدية جدية لتراثنا نقف من خلالها على نقاط الضعف والهوان ونؤسس فيها لأرضية فكرية عقلانية صلبة لحركة الاصلاح المطلوبة.

وما رغبت في الإشارة إليه من خلال هذه المقالة الموجزة، اذ لا تفي اطروحات الجابري مثل هذه الاعمال المختصرة حقها ولا قيمتها، هو وقوفي العملي الملموس طيلة السنوات التسع الماضية، المسدّد والمؤيد لوقوفي النظري السابق، على مصداقية ثلاثية القبيلة والغنيمة والعقيدة/الأيديولوجيا في قراءة الواقع السياسي التونسي وتحليله وتسطير الدروس المستفادة منه (باعتباره عيّنة ساطعة من الواقع السياسي العربي)، فما كان متوقعا من تجربة الانتقال الديمقراطي وما كان منتظرا من المسار الثوري من تحقيق لأهداف تقدمية وانسانية، اصطدم بحقائق عقل سياسي لم يتحرر بعد من سطوة القبيلة بتجلياتها المعاصرة (العائلة/المنطقة/العرش)، ولا سلطان الغنيمة بمعنى النظر الى الدولة باعتبارها "تورته قاطو/كعكة حلوى" يجري التكالب على قسمتها، ولا المنطق العقائدي/ الايديولوجي المغلق الذي يجعل من الانتماء السياسي والفكري سابقا على "المواطنة" والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

مسيرة عمل

ودعوني اختتم المقالة بمثالين حيّين عشتهما، في مسيرة عملي السياسي والمدني التي انخرطت فيها ساعيا ما وسعني الفكر والعمل على التحرّر من تبعات الثلاثية وتجلياتها السلبية: المثال الاول يخص مساهمتي في تأسيس وبناء حركة نداء تونس كمشروع سياسي عصري جرى التأكيد في أدبياته ووثائقه التأسيسية على أنه حزب مدني عصري وطني ديمقراطي حداثي مواطني، لكن الأحداث المتواترة أثبتت في جميع محطاته الاساسية بين سنتي 2012 و2019 على الأقل، انه لم يتمكن للاسف – كما سائر مكوّنات المنظومة الحزبية الجديدة- من تخطّي عقبات القبيلة والغنيمة والعقيدة، وهو ما يمكن استجلاؤه بوضوح، سواء عند تكوين قائماته الانتخابية أو تقديم مرشحيه للمواقع الوزارية أو في بناء أجهزته القيادية.

المثال الثاني يخص مشاركتي في الانتخابات البرلمانية الاخيرة في دائرة سيدي بوزيد، وهي المنطقة التي انطلقت منها شرارة الثورة، لكنها ظلت منطقة "القبيلة/العرش" بامتياز، فقد ترشحت على رأس قائمة حركة النداء تونس، وانا ادرك سلفاً انني اخالف الطبيعة القبلية/العروشية المهيمنة تماما، وكنت اذكر هذا للمواطنين إبان الحملة الانتخابية، فانا انتمي قبليًا لأقلية الأقلية كما يقال، اذ ان سيدي بوزيد جهة يشكّل فيها عرش الهمامة أغلبية، وانا لست "همّاميا" من هذه الأغلبية، بل انحدر من معتمدية المزونة "واحدة من 13 معتمدية تتشكل منها الولاية"، غير انني في المزونة لست من أغلبية "المهاذبة" التي تهيمن على 7 من 9 عمادات، ذلك انني من عمادة "الفوني" الواقعة على اطراف سيدي بوزيد والمزونة، غير بعيدة عن البحر وصلاتها بولاية صفاقس ومعتمدياتها الجنوبية أوثق سوسيولوجيا وتاريخيا، وحتى في هذه العمادة فإن جماعة "الشوكات" تشكل أقلية عدديا قياسا الى جماعتي "العوين" و"الرابيع" اللتين تستوطنان هذه العمادة أيضا. وبالعودة الى النتائج التي حققتها، فان النظر فيها يجزم بما لا يدع مجالا للشك الى ان محدد "القبيلة" كان الدافع الاساسي في توجيه ميول الناخبين، وهكذا تجدني الأوّل في مركز الشوكات حيث يقطن اهلي على مستوى عمادة الفوني، وتجد ان افضل نتيجة حققتها على مستوى الولاية هي تلك التي تحققت في معتمدية المزونة قياسا بغيرها من المعتمديات، وعلى الرغم من انني كنت على مستوى السيرة العلمية والتجربة السياسية الافضل تقريبا بين جميع المرشحين والأكثر إشعاعا على المستوى الوطني بشهادة الخبراء والمحللين (النزهاء والموضوعيين طبعا)، الا انني لم اتمكن من هزيمة ثلاثية الجابري، سواء على الصعيد الحزبي أو على الصعيد الانتخابي..ولست واثقا اذا ما كان العمر سيمكنني من جولة أهزم فيها هذه الثلاثية العنيدة على التاريخ والحركة الاصلاحية منذ قرنين من الزمان على الاقل.

انتقال ديمقراطي

أخيرا، أودّ لفت الانتباه الى مسألة تستحق الدراسة والتحليل، وهي ان البيئة التي وفرها الانتقال الديمقراطي كانت اكثر ملاءمة لظهور سطوة الثلاثية قياسا بما كان عليه الحال في ظل الأنظمة التسلطية السابقة التي كانت اقدر على لجم هذه السطوة في اختيار عناصرها ومكونات اجهزتها السلطوية (حكومة/ برلمان/ جماعات محلية)، وربما يعود ذلك الى معطى الحرية التي لا تُمارس في بداياتها بشكل عقلاني ومسؤول، فهل يجوز ان تشكل الديمقراطية مدخلا للعودة بالمجتمعات الى الخلف تاريخيا، أم ان الامر مرحلي مرتبط بالحقب التأسيسية؟

□ كاتب وزرير تونسي سابق/رئيس المعهد العربي للديمقراطية

العراق بين طائفتين

علي العكيدي
الكوت

على الرغم من أن الكتابة عن هكذا عنوان كان من ضمن أولويات ذاكرتي الاعلامية بالتعامل مع الموقف السياسي العراقي في الوقت الحاضر ,إلا أن صورة وصلتني عن طريق مواقع التواصل الإجتماعي تجمع مجموعة من السياسين العراقين مكتوب أسفلها (انتم ياذيول السعودية) جعلتني أعجل بكتابة هذا المقال .

منذ عصر الرسالة ووفاة الرسول الأعظم محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) وانتقال السلطة السياسية الى الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رض) بعد حادثة السقيفة واختلاف المسلمين على أحقية الخلافة لمن , ظهر على السطح حينها تيارين، تيار مؤيد لخلافة ابو بكر الصديق وآخر يرى ان الخلافة من حق الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) , هذا الأمر ليس جديدا ،الكل يعرفه حتى الناس البسطاء من المسلمين الطيبين ,إذ ظهر الخلاف سياسيا ثم بعد ذلك تطور ليشمل باقي جوانب الحياة الإجتماعية للمسلمين وخاصة الجانب العقائدي وما يرتبط به من معتقدات وسلوكيات ذات صلة , ومع ذلك ظل المسلمون الانقياء لا يعيرون أهمية لهذا الخلاف طالما أن النوايا خالصة لله سبحانه وتعالى، فاستمر التعايش والإنسجام بين المسلمين على إختلاف مذاهبهم التي بنيت على أفكار وتوجهات أئمة ورجال دين من الرموز الكبيرة التي عاشت نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ،أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

مايتعلق بالعراق فظهور الكوفة كمركز سياسي للخلافة الراشدة أثناء خلافة الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام) ،ومن بعده ولده سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) والصلح الذي حدث فيما بعد مع والي الشام في عهد الخليفين الراشدين (رضي الله عنهما) عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان , معاوية بن ابي سفيان ,حيث تمكن الأخير من تاسيس دولة كبيرة في دمشق سميت بالدولة الأموية في الشام ،إستمر وجودها على الأرض حوالي تسعين عاما من عام 41هـ الى عام 132هـ .ظلت الكوفة مقرا لمؤيدي ومناصري الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) الذي دخل حينها في صراعات مع أقطاب ورموز دينية كبيرة طيلة فترة خلافته حيث خاض ثلاث معارك كبيرة مع خصومه من المسلمين المختلفين معه في الأفكار والتوجهات ، في الوقت الذي يمثل هو (عليه السلام) باب مدينة العلم المحمدية وواحد من أروع الرموز الاسلامية الذي قدم للاسلام والمسلمين من الشجاعة والاقدام والزهد والورع والعلم والتقوى وبعد البصيرة مالم يقدمه غيره خلا الرسول المصطفى (صلى الله عليه واله وصحبه وسلم) ,وبعد تلك الأحداث اصبح العراق مركز للمعارضة ضد الدولة الاموية في الشام ,فتم إطلاق تسمية شيعة علي بن ابي طالب على الناس في العراق وخاصة وسطه وجنوبه ,ثم تطورت التسمية فيما بعد فتم اطلاق مفردة الرافضة عليهم كونهم كانوا يرفضون خلافة الخلفاء الثلاث(أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (رضي الله عنهم) ,أما الشيعة من جانبهم أو الرافضة كما أسلفنا فقد أطلقوا مفردة النواصب على أولئك الذين كانوا يناصبون العداء لأهل البيت وعلى راسهم الأمويون الذين قتلوا الامام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام سيد شباب أهل الجنة في معركة الطف الخالدة عام (61هـ)ومن بعده حفيده الشهيد زيد بن علي بن الحسين (عليهم السلام)أثناء خلافة هشام بن عبد الملك عام (122هـ) ,فضلا عن ذلك فقد إستمر الامويون ومنذ عهد معاوية بن أبي سفيان (41 ـ 60 هـ) وحتى بداية خلافة عمر بن عبد العزيز (99ـ 101هـ) بسب الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام، مستغلين ضعف إستيعاب وتفهم أهل الشام لشخصية وعظمة وأخلاق ومبادئ الامام علي (عليه السلام) .

ومن هنا أصبحنا نحن المسلمين من الذين لايهمنا الصراع السياسي بقدر ما يهمنا ان نكون مسلمين نؤمن بدين الله ونوحده ونعتز بنبيه محمد بن عبدالله (صلى الله عليه واله وصحبه وسلم) ونسير على نهجه الكريم ونعتز في ذات الوقت بأهل بيته الكرام وأصحابه الأصلاء ،دون الالتفات الى ماينغص عيشنا كمسلمين أصبحنا أمام فئتين متطرفتين بارائها وأفكارها وتوجهاتها هم فئة الرافضة كما يسميها النواصب وفئة النواصب كما تسميها الرافضة .

سقوط الامويين

بعد سقوط الامويين وانتصار العباسيون في معركة الزاب وتاسيس الدولة العباسية إتخذ العباسيون الكوفة مقرا لهم ثم سرعان مابدلوها وانتقلوا الى الهاشمية ثم للانبار بعد أن تاكدوا من كون الكوفة وسكانها علويو الهوى ، فارادوا الإبتعاد عنها , حتى قام الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور (136ـ 158هـ) بتاسيس مدينة بغداد الخالدة، بعد حوالي عشر سنوات من وفاة أخيه الخليفة العباسي الأول ابو العباس السفاح.

تكون المجتمع البغدادي فيما بعد من الطائفتين السنية والشيعية، كتحصيل حاصل لما كان عليه الوضع قبل ذلك التاريخ ولم تظهر بوادر الإختلاف بين الطائفتين إلا ما ندر، وذلك خلال الاضطرابات التي تحدث والتي يغيب فيها القانون ويتدخل بها الأجنبي كما حدث اثناء سيطرة البويهيون (333ـ 474هـ) وأيضا السلاجقة فيما بعد ولم يحدث صراع قوي توقفت عنده مصادر التاريخ إلا القليل، وبعد سقوط بغداد عام (656هـ ـ 1228م) ودخول العراق في عصر الاحتلال المغولي وبعده توالت عملية دخول الاجانب للعراق مما أدى الى نشوب حروب متتالية كان العراق ساحة لها ،كما كان يحدث بين العثمانيون من جهة والصفويون من جهة أخرى حيث كان الطرفين مهتمين جدا بعملية السيطرة على العراق وبث السموم الطائفية بين شعبه ،وخاصة ما يتعلق بالمجتمع البغدادي الطيب , حيث تحدثت مصادر التاريخ بشكل موسع عن الحروب التي كانت تحدث بين الطرفين أعلاه على الساحة العراقية ,حيث ذكرت بان العثمانيون حين يسيطرون على بغداد فانهم يقتلوا الشيعة ويتعاملوا معهم بقسوة واضحة المعالم وحين يسيطر الصفويون يعملوا ذات الشيء مع السنة ويجعلوا من المراقد السنية إسطبلات لخيولهم , هذا الفعل الميداني لمتطرفي الطائفتين كان يدفع ثمنه المجتمع العراقي والبغدادي على وجه الخصوص، وذلك طيلة قرون الإحتلال الأجنبي للعراق مما عزز الصراع الطائفي بالداخل، ومن هنا فان الأقتتال بين المسلمين في العراق سببه الرئيسي هو التدخلات الخارجية ،وهذا الأمر على الشعب العراقي الطيب ,أن يدركه جيدا وان يعمل المستحيل على أن يفوت الفرصة على الأعداء من خلال نبذ الطائفية والعرقية والتمسك بهوية الوطن الواحد التي من خلالها يعيش بأمن وسلام أولا ،ويعمل على تطور بلاده وإعادة عزها ومجدها ثانيا، وماجرى في العراق في السنوات العجاف الماضية حيث توزعت الطبقة السياسية التي مازالت تحكمه ،توزعت بين إتجاهين متناقضين، فمنهم من عدّ إيران حليف قوي ومنهم من عدّ تركيا لذلك الغرض، ثم تدخلت السعودية على الخط أيضا للاختلاف العقائدي بينها وبين شيعة العراق حلفاء ايران .

هذا الموضوع القديم الجديد مازال يؤرق العراقيون الشرفاء الأصلاء كونه موضوعا جافا عقيما ،لايمت للتحضر والتطور وبناء الانسان باي صلة لذلك عندما انتفض الشباب العراقي الأصيل رافضا تبعية عراق الحضارات لأية جهة كانت من جانب ورافضا الطائفية ذلك المرض المزمن الخطير من جانب أخر، كونه يشكل خطرا على صحة العراق وأبناءه البررة .

حفظ الكرامة

جاء شعار لا للطائفية ,لا للتبعية، من أجل حفظ كرامة العراق وإستقلاله وسيادته من جهة ،وسعادة أبناءه وشعبه من جهة أخرى ,وعلى الطبقة السياسية ان تتعض من ماسي السنوات الماضية ، وتنظر للأمام بعين السياسي المُحنك ، الذي تهمه مصلحة وطنه، وان لم يستطيع والمقصود هنا الطبقة السياسية من النظر الى مصلحة الوطن بعين السياسي المُهتم والغيور على مصلحة بلده، عليها أن تغادر وتفسح المجال للآخرين ربما يستطيعوا أن ينظروا بالعين التي يرغب الشعب أن ينظروا منها للعراق ،حاضرا ومستقبلا وان يعملوا بجد وحرص لخدمته والعمل على تطوره لغرض أن يلتحق بركب العالم المتقدم .

الحرب الصامتة .. كرونا أنموذجاً

ناهد الديب
ماريلاند

نوع عجيب من الحروب، فهي صامتة باردة، لا تترك شظايا أو رائحة، ولا تملأ الجو دخاناً أو بارودا، ولا تخلف وراءها آثار تدمير.

حرب لا ترى فيها فوهة مدفع، ولا دانة دبابة، ولا صاروخاً موجها!!

إنها سلاح العصر الفتاك والأكثر شراسة، إنها الحرب البيولوجية.

فيمكنك بكل بساطة عن طريق إطلاق عدوى ما بأحد الفايروسات أو الجراثيم أن تهزم دولاً بأكملها وتدمر اقتصادها وتشل حركتها وتعلن فيها حالة الاستنفار القصوى كما لو أنها في حالة غزو خارجي.

والمتابع لما يحدث في الصين الآن نتيجة العدوى بفايروس كورونا "الجديد "والمنتمي لسلالة متلازمة "سارس" إلا أن كورونا الجديد تم تطويره لينتقل بين الأشخاص وليس فقط من الحيوان للإنسان، المتابع لذلك سوف يفهم مغزى هذا المقال.

والحرب البيولوجية يطلق عليها أيضا الحرب الجرثومية أو الميكروبية، وهي تُصنَّف ضمن أسلحة الدمار الشامل، ولا تقل شراسة عن الحرب النووية والكيميائية، بل هي أخطرهم لأنها أقلهم تكلفة وأوسعهم انتشارا وأبطأهم احتواءً.

فالأسلحة النووية والأسلحة الكيميائية تحتاج تكلفة مادية عالية وأماكن ذات مواصفات خاصة وتحتاج علماء وخبراء على أعلى مستوى من التخصص، في حين أنك تستطيع تصنيع ترسانة كاملة من الأسلحة البيولوجية في زمن قصير وكل ما تحتاج إليه هو غرفة معمل وبكتيريا مُعدية، فخلية البكتيريا التي تنقسم كل عشرين دقيقة تستطيع إنتاج مليار نسخة جديدة خلال عشر ساعات فقط مما يجعل زجاجة واحدة من البكتيريا المعدية قادرة على القضاء على مدينة بحجم واشنطن الأمريكية أو ووهان الصينية.

حرب بايولوجية

فعلى سبيل المثال نسبة واحد على المليون من جرام واحد فقط من بكتيريا الأنثراكس قادر على قتل أي شخص بمجرد استنشاقه.

ومخطئ من يظن أن الحرب البيولوجية وليدة العصر، بل هي أقدم أنواع الأسلحة على الإطلاق، وهي حرب في الخفاء لا يمكن الإعلان عنها، والتاريخ حافل بنماذج كثيرة تم استعمال الحرب الجرثومية فيها.

فاليونانيون استعملوها قديما ضد أعدائهم إذ كانوا حين يدخلون بلدةً يلقون بالجثث الميتة في مجرى مياه تلك البلدة ويلقون بالحيوانات النافقة والفئران والطيور الميتة لتلويث مياه الشرب، وكذلك كان يفعل الفرس والروم، أما المغول والتتار فكانوا يأتون على الأنهار الجارية وعيون الماء ويلقون فيها بآلاف الجثث لتلويثها، ويبدأون بجثث جنودهم الذين يموتون في الحرب بأحد الأوبئة التي كانوا يجهلون ماهيتها.

ثم تطورت الوسائل مع تطور العصر، ففي العصر الحديث وفي الحرب العالمية الأولى استخدمت ألمانيا ميكروب الكوليرا والطاعون في حربها ضد إيطاليا وروسيا، واستخدمت بريطانيا جرثومة الجمرة الخبيثة "أحد أنواع الأنثراكس الثلاثة" كسلاح بيولوجي في الحرب العالمية الثانية في جزيرة جرونارد الإسكتلاندية، وظلت اسكتلاندا تعاني من آثار هذه الجمرة حتى عام 1987.

وفي الحرب العالمية الثانية أيضاً قامت الوحدة 731اليابانية بنشر ميكروب الكوليرا في آبار المياه الصينية حيث تسببت في قتل ما يقرب من عشرة آلاف شخص.

وقبل ذلك بقرنين من الزمان وتحديداً عام 1763قامت بريطانيا بقتل ملايين الهنود الحمر بالبطاطين الملوثة بفايروس الجدري الفتاك والذي يُصنف بالسلاح البيولوجي عالي الخطورة لقدرته على الفتك بشعوب بأكملها في خلال شهر واحد، فقام الرجل الأبيض دون رحمة بنشر الوباء بين شعب الهنود الحمر سكان الأرض الأصليين فأباد الملايين منهم في صمت ليحتل أرضهم ويؤسس ما عرف لاحقاً بالأمريكتين.

نقص المناعة

ومنذ تأسيسها بعد إبادتها للهنود الحمر لازالت الولايات المتحدة الأمريكية تتصدر ذلك النوع الأبشع من الحروب البيولوجية الفتاكة. ولا تندهش عزيزي القارئ حين تعلم أن العديد من العلماء يؤكدون أن فايروس نقص المناعة المكتسبة HIV

والمسبب لمرض الإيدز تم صناعته في أحد المعامل البيولوجية العسكرية في (فورت ديريك) بمريلاند وذلك ما أكد عليه عالم البيولوجيا الألماني جالوب سيجال وذلك عن طريق دمج نوعين من الفايروسات هما فايروس HTLV-1 وفايروس Visna

وقد أكد على صحة هذا الكلام الدكتورة (فاجناري مآثاي) الحاصلة على جائزة نوبل للسلام، كما ذكر الدكتور (آلان كانتويل) أن الذي أشرف على تصنيع الفايروس هو دكتور (وولف زمنوس) وأنه تم إخفاء هذه التجارب عن وسائل الإعلام.

إن الحروب بجميع أنواعها حروب بشعة، إلا أن الحرب البيولوجية أبشعها على الإطلاق، فهي تستهدف المدنيين ولا تفرق بينهم وبين العسكريين، ومما يزيد الحرب بشاعة أنك لا ترى خصمك ولا تشعر به لتتهيأ له في اللحظة المناسبة، بل تتم مباغتتك بشكل لا تتوقعه.

وقذارة تلك الحرب تتمثل أيضا في أن الدول التي تطلق هذا النوع من الحروب تستطيع أيضاً التحكم في تصنيع الأدوية المضادة واللقاحات والأمصال مما يجعل الأمر يتحول إلى مافيا تتصارع فيها شركات الأدوية المصدرة لتلك اللقاحات.

والحديث عن الحرب البيولوجية لا تتسع له سطور هذا المقال، ونحن في العالم العربي تتم ممارسة هذه الحرب علينا منذ زمن عن طريق المحاصيل المسرطنة وتلويث مياه الشرب ونشر فايروسات الكبد الوبائي وفايروس انفلونزا الطيور وغيرها.

الحل:

الحل يكمن في أقوى مركز حماية على الإطلاق، ألا وهو جهاز المناعة الذي خلقه الله في جسمك والذي إن اعتنيت به يمكنه تولي حمايتك والدفاع عنك بشكل كبير، وكل ما عليك فعله هو اعتماد نظام غذاء صحي والإكثار من شرب المياه بشكل دائم ليصبح نمط حياة، والامتناع التام عن الأغذية المعلبة والمغلفة والأطعمة السريعة، فقد أوصت جميع المنظمات الصحية على مستوى العالم أن تدمير أجهزة المناعة لدى البالغين والأطفال على حد سواء يكمن بشكل عام في ثلاثة أشياء هي: تناول كل ما هو مُعلَّب لأنه يحتوى على مواد حافظة، وكل ما هو مُغلَّف بالبلاستيك لتفاعل مادة البلاستيك مع الغذاء المحفوظ بداخله مع تعرضه لاختلاف درجات الحرارة مما يحوله لمادة مسرطنة، وكل ما هو مُهدرج أو مصنوع بزيوت نباتية مهدرجة.

□ عن واتساب